

في المعجم التربوي

الدكتور إبراهيم السامرائي^(٥)

أقول: هذا شيء يسير من مجموع استثريته فجمعه ليكون صنعة معجبة في «المصطلح التربوي». وقد رأيت أن من الضروري أن أبدأ بمصطلحي «المدرسة والجامعة» فقلت:

ما يكون لي أن أتجاوز حدي فأكتب في «المدرسة والجامعة» وأصحابنا علماء التربية ملء السمع والبصر، وليس لي أن أفتحم حرم التاريخ وشيوخ «الأثر» حماة بررة قد حبروا الدروس ونشروا الكتب فيما ندعوه في عصرنا «التربية الإسلامية».

ولكنني سأقف على «المدرسة والجامعة» وما هو منهما في لغتنا السمحة العربية، ثم قد يكون لي أن أستعير من أصحابنا المؤرخين والتربويين شيئاً أرم به هذا البناء الذي سأسعى إلى انتقاء حجراته وورصتها ما أعانت صنعتي على ذلك. ولا تحسبني أطلت عليك - أخي الفارئ - في هذه «المقدمة»، فإنني أراك عاجولاً آمنناً أن العصر يفرض علينا العجلة، فكلنا يسمي، وليتني فزت بقليل من صبرك، لأبسط لك ما لدي قبل أن تقول: «جمعمة» ولا أرى طيحناً.

فتشت عن أصول «المدرسة» فلم أجدها بهذا الاسم إلا في العصور العباسية المتأخرة. غير أن «المدرسة» في الحقيقة وجدت منذ العصور

(٥) عضو مجمع اللغة العربية الأردني.

المتقدمة الإسلامية، فقد كان «المسجد»، وهو البيت الذي تقام فيه
 الصلوات، معهد الدرس بنفسه منلاب العلم. وكان هؤلاء يدرسون في
 المسجد المعنوي التي تتصل بالقرآن والحديث وسائر علوم العربية، ثم
 اتسعت دائرة العلم فشممت علوم الدنيا. وقد أدرك هذه الحقيقة المشرق
 «وينسك»^(١) الذي أحسن كل الإحسان في تحريره مادة «مسجد» في دائرة
 المعارف الإسلامية. لقد أفاض هذا العالم الجليل في بسط حنيفة
 «المسجد» وما يتصل به من شؤون دينية ودنيوية، وقد شغلت مادة «مدرسة»
 قدراً كافياً مما يتصل بالمسجد.

لقد عرفت العربية مادة «الدرس» فشغلت جانباً من أدبنا طوال
 العصور. ولنقرأ قوله تعالى:

﴿وكذلك تصرف الآيات وليتولوا درست ولينبته تقوم يعلمون﴾ ١٠٥
 سورة الأنعام.

﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق
 ودرسوا ما فيه﴾ ١٦٩ سورة الأعراف.

﴿كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ربما كنتم تدرسون﴾ ٧٩
 سورة آل عمران.

﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ ٣٧ سورة التلم.

﴿وما آتيناكم من كتب يدرسونيا﴾ ٤٤ سورة صبا.

﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن
 دراستهم لغافلين﴾ ١٠٦ سورة الأنعام.

وقرأ ابن عباس: «دارست» في قوله تعالى «درست» من سورة
 الأنعام، وقد فسرهما بمعنى: قرأت على اليهود وقرأوا عليك.

أقول: ومن هنا ذهب من ذهب إلى أن «المدرسة» من حيث كونها

(١) أقول: إن ما حزره Wensinck في دائرة المعارف الإسلامية شاهد على أصالة هذا
 الدرس وقوته، وإخلاص هؤلاء الأعاجم في توجيههم إلى معارفنا الإسلامية. لقد
 أشار هذا إلى وجود «المدراس» عند الميراثين راجع في ذلك: *Jewish Elephantine*
Papyri (ed. Sachau)

بيت علم، قد جرى العرب في صوغها على ما عند اليهود. عرف اليهود «مدراش»، وهو بيت المدرس ܡܕܪܫܐ، وهذا «المدراش» يعني في العبرانية المدرس أو الدراسة التي تنصرف إلى انكتب المقدسة. ثم كان عندهم بيت مدراش ܡܝܒܝܬ ܡܕܪܫܐ بمعنى «مدرسة» أو «بيت المدرس»، وكان عندهم ܡܕܪܫܐ ܡܕܪܫܐ أي «مدرسة».

أقول: إن «المدرسة» اشتاق عربي سليم، وكون «مدراش» لدى العبرانيين لا يعني ضرورة أن «مدرسة» من محاكاة العرب للكلمة العبرانية.

وجاء في الحديث الشريف «تدارسوا القرآن»^(٢) أي يدرسه بعضكم على بعض. ومن هنا عرف المسلمون «المدراس» وهو البيت الذي يدرس فيه القرآن. و«المدراس» في الجاهلية البيت الذي يدرس فيه اللير.

وليس الكلام في مادة «درس» في أصول العربية، لتخلص منها إلى شيء مفيد فنقول: إن للعربية في هذه المادة ثلاثة مسارات:

(١) درس الشيء دروسًا، ودَرَسَه الريح، بمعنى زال وعفا. ومثله: درس الرسم والأثر، أي عفا، ومثله قيل للشوب الخُلُق «دَرَس»، و«الدَّرَس» هو الطريق الخفي. و«الدَّرَسَان» هي الخُلُقَان، واحدها: دَرَسِي. أقول: وهذا المسار يتجه إلى معنى العفاء والزوال.

(٢) و«دَرَسَ» الطعام^(٣) يدرسه درسًا بمعنى داسه، والكلمة يمانية في أصلها^(٤). و«الدَّرَاس» هو «الدياس» بلفظ أهل الشام. و«دَرَسَ» الناقة يدرُسها بمعنى راضها.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (درس).

(٣) أقول: «الطعام» في هذا الشاهد يعني ما كان حيا كالقمح والشعير والأرز ونحو ذلك. وما زالت هذه الكلمة معروفة بهته الدلالة لدى الفلاحين وغيرهم في جنوب العراق ولبنان.

(٤) أقول: إن «الدراسة» «الدرس» بمعنى الدياس والدياسة للسنابل التي تكس فتدوسها الدواب لفصل الحب عن القش، من المراتد اللغوية الخاصة بالفلاحة التي يتطلب عليها الأصول اليمانية القديمة، ثم شاعت في العربية فمرقها العرب في ديارهم المختلفة.

(٣) و«درستُ الكتاب» أدرسه درسا، أي ذلك بكثرة القراءة حتى خُفَّ عليَّ حفظه. قال كعب:

ربي الجلم إدهان، وفي العنق دُرسةٌ وفي الصدق منجاة من الشرِّ فاصدقِ

و«الإدهان» هو المذلة، و«الدُرسة» هي الرياضة.

و«درس» الكتاب درسا ودراسةً. وقال أهل اللغة في قولهم هذا: كأنَّ «الكتاب» عانده حتى انتاد لحفظه، ومن هنا اعتمدوا على قول ابن عباس في «درست» من قوله تعالى في سورة الأنعام التي أثبتناها.

أخلص من إشارتي إلى هذه المسارات الثلاثة إلى أن مادة «درس» تدلُّ على عمل فيه مشقة وكَدٌ شديد. ومن هنا كان المسار الأوَّل ألقى بمعنى المادة في أصل الوضع، فدراسة سابل التمعح وسائر الحبِّ يقتضي هذا الجهد، وهو بمعنى «الدُّوس» سواء بسواء. ثمَّ تحوَّلت الكلمة إلى مسار آخر وهو «درس الكتاب». وهذا الدرّس يتطلَّب الجهد الشاقَّ، ومن أجل ذلك لمع أهل اللغة هذا التحوُّل من الأصل إلى «درس» الكتاب، فقالوا: كأنَّ الكتاب عانده ونفر عنه، ناقضاه ضرباً من رياضة الفكر في حفظه واستيعابه.

وستقول: كيف الأمر في المسار الأوَّل وهو:

دَرَسَ الشيءَ دروسًا، ودَرَسَتْه الريح بمعنى زال وعفا؟

والجواب: إنَّ دروس الشيء كالآثر والظلُّ والبناء ونحو هذا يتطلَّب العمل الشاقَّ الذي تقوم به الرياح وحوادث الزمان في محو الأثر وإزالته.

ومن هنا كان الجامع بين هذه المسارات الدلالية واحدًا هو الجهد والجَدُّ والكَدُّ.

وإذا كنّا وصلنا إلى هذا، فلا بدَّ أن يتحرى الأصل الجامع بين «الدرس» و«الدروس»، وهما بمعنى، فأين يكون هذا الأصل؟

لا بدَّ لي أن أجده في المضاعف «دَسَّ»، و«الدَّسُّ» معروف، وهو

الإخفاء والدفن بشيء من جهد واعنات.

وقد درجت العربية على الإفادة من المضاعف في فك إدغامه والتعويض من أحد المدغمين بالحرف «راء»، ومن هذا «الأس» واليمنة مثثة، وهو الأساس وأصل كل شيء، وبفك إدغام السين ويعوض من الأول راء فيقولوا «الإرس» بالكسر وهو الأصل، وأكثر ما ينصرف للتيب من الأصل، و«الإريس» هو الأمير.

ومثل هذا «الفرد» والمعنى معروف، وهو من «الفد» بالدال بمعنى «الفرد»، ولذلك قالوا: «فدان» للآلة التي يحرق بها لأتيا محتاجة إلى دابتين يجرانها في الحرثة، وكل منهما «فد».

وقد هجر «الفد» في الاستعمال، وحل محله ما تولد منه بالتعويض وهو «فرد». قلت: هجر «الفد» في الاستعمال، ولكنه بقي معروفًا في «الفد» بإبدال الذال من الدال، ومعنى «الفد» هو الرحيد، والكلمة سائرة معروفة.

وعلى هذا أستطيع أن أقول: إن مادة «درس» جاءت من المضاعف «درس»، وقد تجد غضاضة فيك أن تطمنن إلى أن «الدرس» من «الدرس»، وهما بمعنى، لما يتطلبان من جيد واعنات، وأنا أقول لك: إن التحول في العربية بالتعويض أو بالإبدال من الوسائل التي اتبعتها اللغة في تكثير المعاني واحداث الفروق الدلالية في المواد المتقاربة.

وإذا كان أحد المدغمين من «الدرس» قد أبدل به الراء فصار «درس»، فقد يدل به الواو فيتولد «دوس» وهو بمعناه أيضًا، ومثل هذا التحول والإبدال ما يكون في «الضر» الذي هو الضرر، و«الضير» الذي هو بمعناه، ومثل هذا كثير في العربية.

كأنني بالقارئ قد ضاق صدره مما دعوته إلى مشاركتي في تحمل أعباء هذه السمحة العربية، ولكني سأسعى إليه فأشرح صدره وأدعوه معي في النظر إلى «الجامعة» والوقوف على ما يحزب الدرس اللغوي منها.

ولن أزعجك فأقول: إن «الجامعة» عربية عتاً، ذلك أننا في سائر ثقافتنا المعاصرة لا نعول إلا على كل ما هو غربي. ومن هنا كانت غريبتنا المعاصرة شيئاً جديداً تزخر موادها بكلّ غريب جديد.

إن «الجامعة» مادة عربية سميّا أن تكون مقابلًا مكافئًا لما عند الإنكليز وغيرهم في كلمة «University». إن هذه الكلمة الإنكليزية بُنيت على أخرى هي «Universe» وهذه الأخيرة تعني «الكون» في العربية، و«الكون» جامع لما فيه من الأشياء والنظواهر. ولكننا حين ترجمنا الأولى لم نقل مثلاً «كائنة» لبعده هذه الكلمة عن «الجمع والإحاطة»، بل قلنا «جامعة» وأطلقناها فصارت كأنها عربية النيجار، وما هي بذلك.

قلت: إن دأبنا هذا في سائر ما يحزينا من مفردات الحضارة الجديدة، ونشاور مادة الحضارة الجديدة إلى ما هو من شؤوننا العامة، فلغة العلم ولغة الحياة العامة في الصحافة والإذاعة جديدة، بل قل: إن المادة اللغوية في البيت والشارع في المدينة والقرية والبادية قد تأثرت بهذا الجديد الذي فرضته علينا الحاجة أولاً، وما أصبنا فيه من الكسل والنعوذ اللذين ولدحما فينا الانبهار بكلّ ما هو غربي براق.

هذا هو أمر «الجامعة» التي أخذناها ترجمة ولم نسع إلى اختيار كلمة عربية تؤدّي ما تؤدّيه الكلمة الغربية من حيث احتواؤها للعلوم والفنون.

لقد كان الأتراك العثمانيون أسعد متّاً حالاً، فلم يسعوا إلى الترجمة للكلمة الغربية، بل سعوا إلى لغة الإسلام، وهي العربية، فقالوا: «دار الفنون» لما كان يقابل الجامعة، وأسّوها في القسطنطينية. لئلا يسعوا إلى العربية لأنها لغتهم الثانية التي فرضها الإسلام، ولأن لغتهم التركية لم تسعهم في توفير ما يحزبهم من أمور العلم والمعرفة. وشبه بذلك ما صنع الإيرانيون فقد أوجدوا كلمتهم الفارسية، ولم يحتفلوا بالكلمة الغربية.

ثمّ ماذا؟

لقد تجاوزنا «الجامعة» إلى غيرها من موادّ، وذلك أنّ «الجامعة» تتألف منيا معاهد لتعلم، وكلّ معهد أطلق عليه اسم «الكليّة». وليست الكليّة ممّا اجتهدنا فيه فابتدعناه، ولكنه شيء اهتمدنا إليه لنضمه مقابلًا لـ «Collugen» الإنكليزية، وهذه الأخيرة هي التي امتحتنا فسينا إلى خطب وذا فاخترنا ما يقابلها في العربية لاجتنب إلى التوليد، ذلك أنّ «الكليّة» تفي بأصول الكلمة الإنكليزية التي تعني الكلّ والجمع ونحوًا من هذا.

لقد صنعنا «الكليّة» مصدرًا صناعيًا حديثًا ليؤدّي ما تؤدّبه الكلمة الأعجميّة، فلم يكن لنا هذا المصدر من «كلّ»، ذلك أنّ الحاجة لم تكن فينا فتسمى إلى توليده.

ومن الطريف أن نعرض لشيء من هذا الجديد، وما كان له من دلالة القديمة إعلامًا للقارئ أنّ «جامعة» شيء جديد ولّدناه محتاجين مضطّرين أن نقابل به كلمة إنكليزية هي «University».

جاء في العربية القديمة:

أتان «جامع» أي حملت أول ما تحمل.

وجمّل «جامع» وناق «جامعة» أي أخلفا بُزولًا، ولا يقال هذا إلا بعد أربع سنين.

ودابة «جامع» تصلح للإكاف والسرج.

وقلّز «جامع» و«جامعة» و«جماع»، أي عظيمة.

و«الجامعة» العُلّ.

ومسجد «الجامع» والمسجد «الجامع»^(٥) لغتان، أي مسجد اليوم الجامع، وفيه يجتمع الناس لصلاة الجمعة وغيرها.

أكفي بهذا القدر لأقول: إنّ «الجامعة» جديد مولّد، فرضته الحاجة

(٥) وذهب جماعة إلى أنّ «المسجد الجامع» من الخطأ اللغوي.

إلى إيجاد مقابل في العربية للكلمة الإنكليزية.

ونحن في «الجامعة» محكومون بنظم ورسوم كلها جديد، فألقاب هيئة التدريس العلمية من المعيد والمدرّس والأستاذ المساعد والمشارك والأستاذ كلياً جديد، وُضع على مثال ما يقابله في اللغات الغربية. وقد تقول: إنّ المعيد والمدرّس والأستاذ شيء كان لنا في تُقَلُّمنا التعليمية القديمة، وهذا صحيح، غير أنّ ما لنا من هذه الألقاب في عصرنا لم تكن فيه قد أحيينا القديم الموروث، بل إنّنا ولدناه على مثال ما عند الأعاجم.

ونأتي إلى عالم الشهادات فنجد: الدبلوم والليسانس والبكالوريوس والماجستير، والدكتوراه وكلّها أعجمي جديد، وما زلنا نتخبط في إيجاد ما يقابلها في العربية، ولئن كان طائفة منّا لا يبيّهم هذا الأمر، ويحسبون أنّ الاحتفاظ بهذه الدرجات شيء ضروريّ جرى عليه عالم اليوم.

وليس الأمر كذلك، فكثير من الدول الغربية والشرقية، المتقدمة والمتخلفة، لا تحفل بهذه الرسوم الأجنبية بل اجتهدت أن يكون لها شيء خاصّ بيا.

وربّما استقرّ في أذهان كثير منّا أنّ ما يُدعى «البحث العلمي» شيء من ثمرات عصرنا الحاضر الذي أرسى قواعده الغربيّون.

لقد فات هؤلاء أنّ البحث العلمي قديم، وأنّ الأمم كافة شركاء فيه. ألم يكن الصينيّون والهنود والإغريق والعرب وسائر المسلمين من أهل البحث العلمي؟ لقد كان دأب تلك الأمم القديمة في العلم سعياً ومواصلة وتجربة في الوصول إلى الحقيقة. وليس لنا أن ننكر التألّق العلميّ الذي عرفه عصرنا، وما أبدعه أهل الغرب والشرق في الأعاجيب العلمية التي ما تفكّك تؤخذ بها كلّ يوم. إلّا أنّ هذا لا يحجب عنّا الحقيقة العلمية القائلة: إنّ ما انتهى إليه المعاصرون من التقدّم العلميّ كانت له بوادر قديمة.

إنّ للحضارة الإنسانية مسيرة طويلة، ولا يحجب ألنّ عصرنا ويريقه

ما كان للتداعي من إشراق علمية شاركت في بناء هذا الصرح المعاصر.
أتحوّل بعد هذا إلى «التلميذ والمعلم والمدرّس والأستاذ».

فأقول: أجتزئ من هذه «التلميذ» و«الأستاذ» وذلك لأنّ «المعلم»
و«المدرّس» معروفان، وقد كان لي أن عرضت للمدرسة. إنّ «التلميذ»
مادة قديمة ولد منها الفعل «تلمذ»، والفعل مصنوع. ذلك أنّ الثلاثي لا
نعرفه في العربية وهو «لمد»، وكأَنَّهُ نُسِيَّ وهُجِرَ. غير أنّنا نجد في العبرية
٦٣٤٦، وهو من غير شك في الأكديّة الآشورية. وعلى هذا فلم يوفق
البغدادي في رسالته الصغيرة «التلميذ»^(٦) لجبله بالأصول السامرية.

وأما «الأستاذ» فهو معرّب قديم من الفارسية وهو «أستته»، وقد
صرفه العرب إلى العوالي والعييد إكراماً لهم، ومن هذا كان قول المتنبي
«الملك الأستاذ» في قصيدة مدح بها كافوراً الإخشيدي. وقد عُرِّبَتْ
الكلمة في الألسن الدارجة بـ«أستاد» بالدال المهملة. كما عُرِّبَتْ بلفظ
«أستله». وفي عاميّة العراق «إستته» للمرأة الخياطة، وهذا طريف.

وقد يكون لي أن أتصر في هذا الموجز على ما تيسر لي.

(٦) رسالة التلميذ للبغدادي (ط. الخانجي بمصر) في مجموع من «نوادير المخطوطات»
نشرها وخفّفها عبد السلام هارون.

